الإمام محَمَّد بن محبوب
إشعاع حضاري

الشيخ محمَّد بن بابه الشيخ بالحاج
مدرِّس في معهد القرارة، بالجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد انغرست وتأصَّلت المدارس والمذاهب الفقهية أواخر القرن الأوَّل وأوائل القرن الثاني للهجرة النبوية، بما في ذلك المذهب أو المدرسة الإباضِيَّة في مقدمتها أو طليعتها. ومهما يكن من تحديد أطوار الفقه الإسلامي أو التشريع الإسلامي بحدود زمانية، كما ذهب إليه البعض، حسب القرون أو العصور السياسية للدولة الإسلامية، أو تحديدها بحسب المميزات الموضوعية فحدَّدها أو صنَّفها إلى:

1 ـ **طور التشريع الحقيقي:** بالمعنى الصحيح للتشريع وهو خاص بالوحي من الله ﷻ إذ هو المشرِّع الحقيقي، والوحي غير المتلو، وهو السنة المبيِّنة للقرآن، قولًا وفعلًا وتقريرًا، وهذا الطور خاص بفترة النبوة عهد النبي ﷺ، من بدء الوحي بنزول قول الله ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: 1 ـ 5]، وانتهاء بنزول قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

2 ـ **طور الاجتهاد المطلق الحر:** اجتهادًا غير مقيد إلَّا بكتاب الله وسُنَّة رسول الله الثابتة الصحيحة، وكلها آنذاك صحيحة، إذ لما يدخلها الدسُّ والزيف والوضع، مهما كانت: قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، مهما ثبتت، وأينما وُجدت. وهذا الطور كان ميزة الصحابة ﭫ، خاصة المجتهدين منهم، الراسخين في العلم، ممن حباهم الله بحمل شرعه، وفقه دينه من منابعه، بل من منبعه الصافي الوحيد: رسول الله ﷺ، قولًا وعملًا وسيرة وسلوكًا وخلقًا ومعاملة، مع الله ﷻ، ومع خلق الله جميعًا، وقد كان على خلق عظيم، ولقد كان خلقه القرآن، كما منّ الله عليه بذلك، كما قالت عنه أحبُّ أزواجه إليه أمُّ المؤمنين عائشة ﭬ: «كان خلقه القرآن». وقد أشاد الله تعالى بكريم خلقه حيث يقول له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: 4].

3 ـ **طور نشـــأة المذاهب الفقهية:** وتأصيلها على أيدي أئمتها المؤسســين لها، بدءًا من بعض كبار التابعين أمثال جابر بن زيد، والأوزاعي، والثوري، والحســن البصري، وســعيد بن المســيب، وســعيد بن جبير، ثُمَّ من صغار التابعين وتابعيهــم، ومنهم أَئِمَّة المذاهب المشــهورة الباقية، وهم بحسب الترتيب التاريخي:

- أبو حنيفة النعمان، المعروف بالإمام الأعظم.
- إمام دار الهجرة: الإمام مالك بن أنس.
- الإمام محَمَّد بن إدريس الشافعي.
- الإمام أحمد بن حنبل، على تميزه وشهرته بمسنده في الحديث.
- أَئِمَّة آل البيت شــيعة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، مثــل الإمام زيد بن علي بن الحسين، والإمام جعفر الصادق ابن محَمَّد الباقر.
- داود بن علي السجستاني الظاهري.
- وقد يكون هناك غيرهم، وقد يكون بعضهم مزامنًا لبعض بزمن قليل عنه، أو يتأخر عنه بأمد قصير.

4 ـ **الطور الرابع للفقه أو للتشريع الإسلامي: طور التفريع أو الاستنتاج:** وظهر به كبار تلاميذ كل إمام مثل أبي يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، كبيري تلاميذ أبي حنيفة النعمان. وابنُ القاسم وابن وهب ويحيى بن يحيى وأمثالهم من كبار تلاميذ الإمام مالك بن أنس. والبويطي وأنداده من كبار تلاميذ الإمام الشافعي أيام إقامته بالعراق أو أيام استقراره بمصر. وكذا كبار تلاميذ أَئِمَّة الشيعة.

ســمي هذا الطور طور التخريج والتفريع؛ لأن هؤلاء التلاميذ الكبار اعتكفوا على أقوال أئمتهم، والتفوا حولها، يســتنطقونها ويســتولدونها الأحكام الفرعية للمسائل المســتجدة أو المتوقعة، وفق الحياة ومتطلباتها آنذاك، أو المتوقعة بحســب اتساع الدولة الإسلامية من تخوم الصين وما وراءها شرقًا، إلى شــواطئ بحر الظلمات أو المحيط الأطلنطي غربًا. فوُضعت الموسوعات الفقهية للمسائل الفرعية الواقعية أو المحتملة، في ظل الدولة أو الدول الإســلامية الكبرى آنذاك: الدولة العباسية وبنيَّاتها أو ربيباتها في المشــرق، والدول الغربية وشمال أفريقيا، كالدولة الأموية في الأندلس وما عاصرها من الدولة الرســتمية الإِبَاضِيَّة في معظم شــمال أفريقيا: الجزائر وتونس وليبيا والمغرب الأقصى وموريتانيا والصحراء الغربية حاليًا، وما عاصرها من دولة الأغالبة شــمال تونس وشــمال شرقي الجزائر، ودولة الأدارسة شمال المغرب وشمال غربي الجزائر. وفي تلك الفترة وبهذا التفريغ تكونت الموسوعات الفقهية، مثل: المبســوط للسرخسي، وكتاب الأم للشافعي أو البويطي، والمدونة لسحنون و... و... وغير ذلك كثير.

5 ـ الطور الخامس طور الجمود والانكماش والاندحار والتقلص والتقليد والتبلد الذهني:

كرد فعل وانتكاص على عقب النكسات والانهزامات التي منيت بها الدول الإسلامية والمسلمون بصفة عامة، في المشرق على أيدي المغول والتتر، وفي المغرب على أيدي الإسبان والبرتغال. وانقرضت الدولتان العظميان، الدولة العباسية من بغداد (العراق)، والدول الأموية من غرناطة وقرطبة أيام ملوك الطوائف، فاستكان المسلمون، خاصة العلماء وطلبة العلم منهم، فتفرقوا وانطووا على أنفسهم، ورأوا أن لا داعي للاجتهاد وإعمال العقل، إذ لم يعد يدفعهم العالَم أو الحياة إلى التجديد، وكل شيء مستطر في الموسوعات، وما على طالب العلم والمعرفة إلَّا أن يستوعب ما فيها حفظًا؛ فأغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد والجهاد بإجهاد عقولهم، وأقبلوا على حفظ بل اختصار تلك الموسوعات وحفظ مختصراتها، فصبغ واصطبغ الفقه وعلومه كلها ـ بل وكل العلوم اللسانية ـ بصبغة الاختصار والألغاز، مِمَّا دعاهم مرة أخرى إلى شرح وحل تلك الألغاز، وفك غموضها، وحل معضلاتها، وقد دارت العلوم الشرعية وآلياتها وطلابها ومريدوها في دوامة وحلقات مفرغة، من الموسوعات إلى مختصرات، ومن المختصرات الملغزة إلى الرجوع إلى مصادرها لشرحها وحل رموزها، ومن الشروح إلى الحواشي، ومن الحواشي إلى التعاليق ومن التعاليق إلى التعقيبات، ومن التعقيبات إلى الردود ـ ردود البعض على بعض ـ إلى ما لا يكاد ينتهي، وإذا استطاع ذو همة وإرادة وصبر الوصول إلى نهاية فَإِنَّهُ قلما يحصل على نتيجة يطمئن إليها، ويستمسك بها، ويعضُّ عليها بكلتا يديه وبنواجذه، اللهم إلَّا على أساس التقليد أو التعصب المذهبي. وتلك أخطر فترة مرت بها الأمة الإسلامية، وقد دامت عدة قرون تجمَّد فيها الفكر الإسلامي، وتبلد فيها العلماء المسلمون وتلاميذهم، ونضبت عقولهم أو عقمت فلم تعد تنجب أو تنتج شيئًا جديدًا؛ فأصبحوا يجترون الماضي، وقلما يفقهون منه شيئًا، والأمة الإسلامية سادرة في نوم عميق، كاد يكون موتًا، ولعله كذلك، وَكَأَنَّهَا قد نالها الإعياء والإرهاق والانهيار مِمَّا حقَّقته في عصور عزِّها وقرون ازدهارها، وتلك الأيام نداولها بين الناس، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: 54] ولله في خلقه شؤون.

بينما الأمم الأخرى خاصة الأمم الغربية منها ـ أوروبا وغيرها ـ قد أخذت قبسًا من نور الإسلام، من مشرقه ومغربه، يستنيرون به من دون إيمان أو اعتراف بفضله، بل على حرص منهم على إطفائه، فساروا بذلك القبس النوراني الإلهي، وعرفوا له ـ وجحدوا ـ فضله ونوره، فأنار لهم سبل حياتهم الدنيوية في الأرض، بَرًّا وبحرًا، ثُمَّ في الفضاء، في السماء الدنيا وطباقها. غير أنها ألقت ظلالها ـ بل ظلماتها ـ في الأمة الإسلامية، وهي تغطُّ في سباتها العميق، ولم تصْحُ ولم تُفِقْ وتستيقظ إلَّا على وقع المدافع وطلقاتها المدوية ونيرانها المحرقة وقذائفها المدمِّرة!

6 ـ **الطور الســادس والأخير إلى تاريــخ اليوم:** وما بعده غيــب لا يعلمــه إلَّا الله، وهو طور الانبعاث والتجديد، أو طور النهضة واليقظة والصحوة الإســلامية، بحثًــا عن الماضي واعتزازًا به، واســتمدادًا للإحالة منه ـ إن صدقت النيات، وخلصت الأعمال والمقاصد، وتشــوفًا وتفتحًا وتطلعًا إلى المســتقبل الأخَّاذ ببريق زخارفه ومغرياته ـ حرصًا على الجمع بين الحســنتين: حســنة الدنيا وحســنة الآخرة، وهل في وسعنا ذلك على أســاس قول الله ﷻ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقــرة: 201]، وقوله: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصــص: 77]. وهل يتحقق ذلك ونصل إليه عن طريق «أســلمة العصر»؟ أو عن طريق «عصرنة الإسلام»؟. هذه الجدلية المطروحة ينبغي ـ بل يجب ـ أن تكون بؤرة التفكير والعناية من مثل هــذه التظاهرات والندوات والمؤتمــرات واللقاءات للحوار بيــن الثقافات، أو بين الحضارات، وبين الديانات، بل ولو حَتَّى بين المذاهب والانتماءات الإســلامية عبر المذاهب، فيجب أن يطــرح للبحث بجد وعمق، بــل يجب ويتعين علينا أن نســعى إلى أســلمة الحيــاة وصبغها كلِّها بصبغــة الإســلام، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقــرة: 138]. وهذا ما فعله أســلافنا من الصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم، فقد صبغوا معظم إن لم نقل كل الأمم والشعوب والدول والأقطار التي أكرمها الله بفتح الإسلام، صبغوا كلَّ مجالات حياتها بالإسلام. وهذا ما يجب علينا اليوم، ونبدأ بنفوسنا وأهالينا وعشائرنا الأقربين، وأممنا وشعوبنا ودولنا وحكوماتنا وسلطاتنا، انطلاقا من قول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريــم: 6]، وقوله لرســوله المبعوث رحمة للعالمين: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشــعراء: 214]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 105].

أَمَّا لقاؤنــا هذا اليوم فحــول عَلَم من أعلام الفكــر الإباضي في أرقى وأزهر أطــوار التاريخ الإســلامي، بعد خير قرونها قرن النبي ﷺ وأصحابــه الطيبين، من الأنصــار والمهاجرين وكبار التابعين، إنَّهُ عصر نشأة المذاهب وتأسيســها وتأصيلها، بدءًا كما سبق قولنا بالإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد، وقد وضع معالم المذهب الأولية وأصوله وأسســه، وإن لم يقصد إنشــاء أو انتحال مذهب معين مســتقل متميز عن الكتاب والسنة؛ وذلك شأن معظم ـ إن لم نقل كل ـ أَئِمَّة المذاهب الإســلامية، خاصة أَئِمَّــة التابعين. وقد توفي الإمــام جابر رَحِمَهُ اللهُ أواخر القرن الأَوَّل الهجري ســنة 93هـ/ 95هـ، وخَلَفَه مِن بعده تلاميذه، وعلى رأســهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، الذي يعتبر مرســي قواعد وأصول المذهب، فحدد معالمه العقدية والعلمية والفقهية والسياسية، وتخرج عليه نخبة من حَمَلَة العلم إلى المغرب، وعلى رأســهم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، مؤسس الدولة الخطابية الإِبَاضِيَّة بطرابلس الغرب (بليبيا) فبويع بيعة شرعية بضاحية «صياد» سنة أربعين

ومائة من الهجرة (140هـ). ومعه من طلبة العلم زملاؤه: عبد الرحمٰن بن رستم، مؤسس الدولة الرستمية ببيعة شرعية سنة مائة وستين هجرية (160هـ)، ومسعود الأندلسي، وأبو داود القبلي، وأبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي.

كما تخرج على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أو من مدرسته السرِّيَّة حملة العلم إلى المشرق: عُمان واليمن وحضرموت وخراسان، ومنهم أبو موسى الإزكوي، والربيع بن حبيب، وأبو نوح صالح الدهان، ومحبوب بن الرحيل و... و... ممن أنجبوا الإمام المحتفل به اليوم «محَمَّد بن محبوب بن الرحيل» المتوفى سنة 260هـ، مِمَّا يثبت ويؤكد أَنَّهُ عاش الفترة الزاهرة الذهبية الراقية للمذاهب الإسلامية، وللمذهب الإباضي خاصة، مذهب أهل الدعوة والحق والاستقامة، ويكون معاصرًا لأرقى فترات الدولة الرستمية بالمغرب، بتيهرت ـ تيارت حاليًا، غرب الجزائر ـ وقد تأسست سنة مائة وستين هجرية (160هـ)، وعاشت وامتدت ودامت مائة وستة وثلاثين (136) عامًا إلى غاية 296هـ.

وكأني بالإمام محَمَّد بن محبوب ـ وإن كنت لا أجزم ـ قد عاش فترة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن، فقد يكون ضمن العلماء الذين كان لهم تواصل مع الأَئِمَّة الرستميين، بالتراسل والتشاور في كثير من انشغالات عصرهم وزمانهم ومستجدات الأحداث، شرقًا وغربًا، خاصة أيام نشأة الدولة الرستمية والدعم والإعانة والمساعدة التي قدَّمها الأصحاب المشارقة لها أَوَّلَ عهدها أيام الإمام عبد الرحمٰن بن رستم، فتقبلها في المرة الأولى ـ بعد مشورة أهل المشورة ـ لمجيئها في الوقت المناسب، وموقعها الموقع الملائم من حاجة الدولة للدعم والمساندة والعزة والتمكين والاستقرار، بينما المساعدة الثانية من العام التالي أو بعده، جاءت وردها الأَئِمَّة المغاربة على أصحابهم المشارقة عسى أن يكونوا أحوج إليها من الدولة. وقد استقرت وتمكنت بعز اللّٰه ونصره وتمكينه لهم، مستخلفين في الأرض، ولكن الأصحاب المشارقة رحمهم اللّٰه بدل أن يستهلكوا تلك المساعدة المالية فتكون بمثابة الرجوع في الصدقة وقد أخرجوها ونذروها للّٰه، وباعوها واشتراها اللّٰه منهم ـ فقد استنسخوا بها كتبًا، فبعثوا بها وقر أربعين بعيرًا؛ وذلك ما يقرب من ثمانين 80 قنطارًا، فأدركت إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن، قال عن نفسه: إِنَّهُ قرأها كلها، فقال: «ما استزدت منها علمًا، إِلَّا ثلاث مسائل اجتهادية لو سئلت لأجبت بمثل ما ورد فيها»! إن صح هذا، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 14]، ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة: 269]، وقوله ذلك تحدُّثًا بنعمة اللّٰه عليه، وبمدى رسوخ الأَئِمَّة في العلم والفقه والاجتهاد، وأنَّ توليهم وتولياتهم ومبايعاتهم بالإمامة كان عن تأمل وجدارة واستحقاق، ولم تكن مجرد إرث لها بعلاقة النسب، كما زعم بعض الغافلين أو الجاهلين ممن كتبوا عن الدولة والإمامة

الرستمية. ولقد كانت تلك الكتب نواة أو دعمًا وإثراءً للمكتبة «المعصومة»، مكتبة الدولة الرستمية، والتي كانت مفخرة وميزة أهل الحق والدعوة والاستقامة، ومكتبة الدولة الرستمية شأنها شأن مكتبات الدولة العباسية ببغداد أو البصرة أو الكوفة، أو مكتبات الدولة الأموية بالأندلس بقرطبة واشبيليا أو غرناطة، وَلَكِنَّهَا أتلفت كما أتلفت ـ وتتلف ـ معظم المكتبات على أيدي الغزاة المغيرين، مثل: التتر والمغول على مكتبات أو تراث العباسيين في المشرق، ومثل الإسبان والبرتغال الذين تسلطوا على مكتبات وتراث الأمويين وملوك الطوائف بالأندلس، وكذلك أتلفت ـ وقيل: أحرقت ـ المكتبة المعصومة الرستمية على أيدي العبيديين الفاطميين بقيادة أبي عبد الله الشيعي الداعي أو الداعية لإمامة عبيد الله المهدي الفاطمي، وذلك عند تقويض وانقراض الدولة الرستمية سنة 296هـ. قلت: وأقول: لعل إمامنا المحتفل به اليوم محَمَّد بن محبوب بن الرحيل كان من جملة العلماء الذين أرسوا قواعد المذهب وأصوله العقدية ـ الكلامية ـ وأصوله الفقهية والسياسة لما قامت فتنة أو ثورة ابن فندين حول قضية جواز إمامة الفاضل مع وجود الأفضل، وقضية الإمامة أو البيعة له مع شرط، وهي قضية أثيرت حول إمامة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمٰن بن رستم، وقد تولى أو بويع وقُلِّد الإمامة بعد عبد الرحمٰن بن رستم، وقد كان رأي أهل الحل والعقد أول الأمر بعد وفاة الإمام عبد الرحمٰن منصبًا أو متَّجهًا ومركَّزًا على مسعود الأندلسي، وهو المرشح الأَوَّل للإمامة قبل عبد الوهاب، وهو الثاني، ولكن مسعود لما أحس بذلك خرج من تيهرت على حرص وجدية الباحثين عنه، فلم يسَعْ أهلَ الحلِّ والعقد أن يبقى منصب الإمام شاغرًا أكثر من ثلاثة أيام تأسِّيًا بفعل الصحابة ﷺ بعد شغور منصب الخلافة بمقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبوصية أو تعليمة منه، فبايع أهل البيعة في تيهرت ـ ومنهم نفاث بن نصر ـ عبدَ الوهاب بن عبد الرحمٰن بيعة شرعية بالإمامة، واشترط يزيد بن فندين في بيعته ألا يقضي الإمام أمرًا من دون استشارة جماعة معلومة، فقال له الإمام: البيعة حجة والشرط باطل، ما سمعنا بمثل هذا في أسلافنا الصحابة الأولين.

وَلَمَّا تمت البيعة الشرعية بالإمامة للإمام عبد الوهاب، وثبتت في عنقه، وتعينت طاعته على المسلمين ما أطاع الله ورسوله فيهم، ظهر مسعود الأندلسي فبايع الإمامَ عبدَ الوهاب بدوره بيعةَ الإمامة بالسمع والطاعة، واستقرت الإمامة، قامت قيامة ابن فندين ورفاقه، حسدًا من عند أنفسهم، وقد كان يطمح إليها أو إلى مقام معتبر فيها، بحكم العلاقة النسبية، أو علاقة رحم بينه وبين الإمام، فلم ينله؛ فنادى ببطلان إمامة المفضول (عبد الوهاب) مع وجود الأفضل (مسعود الأندلسي)، ونادى أيضًا بوجوب التزام الإمام بما اشترط عليه يوم البيعة ألا يقضي أمرًا من دون استشارة ومشورة أهل الشورى من أهل الحل والعقد. إزاء الإفرازات والمضاعفات والشغب

والهرج والمرج التي أفرزتها هذه الفتنة كاتَبَ الإمامُ عبدُ الوهاب وأهلُ شُـورَاه ممن معه من أهل الحل والفقه أَئِمَّةَ الأصحاب من العلماء المشارقة، في عُمان وحضرموت ومصر وخراسان، ومعظم مواطن الأصحاب يستفتونهم في هذه المستجدات والمسـتحدثات، وهم على علم بأحكامها، ولكن من بـاب قـول إبراهيـم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقـرة: 260]، فجـاءت كل الكتب والأجوبة موافقة ومؤيدة مـا عليه الإمام مع وجود مـن يفضله في بعض مميزات وخصائص، ومثله في ذلك صحـة خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ﷺ، بإجماع الأمة الإسـلامية آنذاك، وفي الصحابة ﷺ من هو أفضل منهما في القضاء مثل: علـي، وأقرأ منهما مثـل: أُبَي، وأعلم منهما بالحـلال والحرام مثل معاذ بـن جبل، وأفرض منهما في الميراث مثل: زيد بن ثابت، وأن لا شـرط مع البيعة إلَّا شرط الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله الصحيحة، وسيرة السـلف الصالح من هذه الأمة، مثل: الخلفاء الراشدين ﷺ. إلى غير ذلك، حيث يطول في هذه الوقائع أو الواقعة التي انقسـم إزاءها الأصحـاب المغاربة إلى وهبيَّة ونُكَّارٍ، ولعله قد نال الأصحاب المشـارقة بعض شـظايا من ذلك عبر التاريخ الذي سـجَّلته كتب السـيرة، وإن كان أنصار ابن فندين ـ النُّكَّار ـ قد انقرضوا أو لم يعد لهم ذكر أو وجود منذ أمد بعيـد ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبيـاء: 105]، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: 2].

أيها السـادة، أصحاب السـماحة والفضيلة، إننا اليوم في هذه النـدوة نحيي ذكرى أولئك الشـيوخ والأئمة الأمجـاد وما كانوا عليه مـن تواصل وتكامل وتشـاور وتحاور في المسـتجدات والمستحدثات، على بُعد الشـقة بينهم من جهة، ومن جهة أخرى: ألا فليكن لنا بهم أسوة حسنة في التزاور والتحاور والتشاور؛ بين الشـرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، على مستوى العالم الإسـلامي والمذاهب الإسـلامية وعسـانا ـ أو كدنا ـ نقول: وعلى مسـتوى المذاهب والديانات السـماوية، فضلًا ـ ومن باب أولـى وأحرى ـ على مسـتوى المذهب الواحد، مذهـب أهل الحق والدعوة والاسـتقامة، وليكـن كل مذهب كذلك وقد توفـرت لدينا ـ أو وُفِّرت لنـا والحمد لله، خاصة على مستوى السلطنة ـ كلُّ الوسائل والإمكانات المادية والعلمية والفنية أو التقنية للتواصل والتزاور البدني، على مستوى هذه الندوات والملتقيات والمؤتمرات والتظاهرات العلمية والثقافية والفكرية، على مختلف الأصعدة، والتواصل عبر المواصلات السـلكية واللاسـلكية، من القنوات الفضائية والشـبكة المعلوماتية العالمية (الإنترنت)، والكتب والرسـائل والنشـريات والمجلات بمختلـف اللغات. فمـا أحوجنا إلى كل هـذا في هذا العصـر أكثر من كل زمـان مضى؛ لنواجه التحديات من المستجدات والمستحدثات، وما تتطلب من توحيد التصور وتوحيد الرأي والمدارك إزاءها وأبعادها خيرها وشرها، خاصة أمام الحملة أو الهجمة الشرسة المعلنة اليوم ضد الإسلام

ـ أصالة أوَّلًا وبالذات ـ وضد المسلمين الحقيقيين أينما وجدوا، تحت شعارات مختلفة مقنَّعة حَتَّى تحقَّق قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: 73].

ألا فلتكن لنا في محتفلنا به هذا وفي سلفنا أسوة حسنة، وإلا فقد قال الله ﷻ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 134، 141]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 105].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.